جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ
مقياس تاريخ المشرق الإسلامي ق2-8هـ/8-14م
د. بلال ساحلي
البريد الالكتروني: b.sahli@univ-dbkm.dz

المحاضرة العاشرة:

ثانيا: ثورة الزنج وحركة القرامطة:

أ- ثورة الزنج (255-270هـ/869-884م):

ابتدأت حركة الزنج في خلافة المهتدي سنة(255هـ/869م)، وكان خروج العلوي قائد الزنج في البصرة، ودعى إلى نفسه، مُدّعيًا النسب للعلويين، مستغلاً الظروف الشاقة التي كان يشتغل فيها العبيد والأفارقة الزنوج فاستقطبت دعوته عبيد أهل البصرة السودان، ومن ثمّ قيل الزنج، حتّى استفحل أمره، وهزم جيوش الخليفة، واستباح البصرة، وغيرها، وفعل الأفاعيل وامتدّت أيّامه الملعونة، إلى أن قُتل في سنة(ت270هـ/884م). حين ظفر به الأمير " الموفق بالله " في أيام خلافة أخيه المعتمد بالله، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد.

حاول صاحب الزنج إضفاء الصبغة الشرعيّة على دعوته، بادّعاء النسب لآل البيت لاستمالة الأتباع، وحشْد الأنصار، فزعم أنّه علوي النسب، وأنَّ اسمه علي بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، إلا أنهم كانوا يقدحون في نسبه، فقال ابن جرير الطبري(ت310هـ/923م) الذي عاصر مرحلة لا بأس بها من هذه الحركة أنّ النسب الحقيقي لصاحبها يعود إلى بني عبد القيس، وأنّ اسمه الحقيقي هو علي بن محمّد بن عبد الرحيم، وأمّه قرّة بنت علي بن رحيب بن محمّد بن حكيم، من بني أسد بن خزيمة وأصله من إحدى قُرَى الرَّي، ولا علاقة تربطه بآل البيت؛ لذلك كانوا يطلقون عليه عدة ألقاب تبين افتراءه مثل: "دجّال البصرة" أو: "المدَّعي إلى آل أبي طالب""، أو حتى: "الخبيث".

ويبدوا واضحاً أن الزنج استغلوا التخبط العام وحالة عدم الاستقرار التي كانت تعيشها الدولة العباسية بسبب تسلط التيار العسكري مستغلين الخلاف بين المعتمد والأتراك، الذي رغم شجاعته وغيرته على مؤسسة الخلافة لم يستطع كبح قوة الأتراك وتعرض للقتل في السنة التي ظهر فيها صاحب الزنج.

ومن الآثار المروعة التي ارتكبها الزنج أنهم دخلوا إلى البصرة في سنة(257هـ/871م) وارتكبوا بها مجازر مروّعة، وأحرقوا المسجد الجامع بها، وقُتِلَ جماعة كثيرة من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدِّثين والعلماء، وأمام استفحال الثورة وتوسّعها بإقليم البصرة غادرها سكانها بعد أن أدركوا أنّ جيش الخلافة عاجز عن التصدّي للثورة، والحدّ من انتشارها، وكان ممن خرج منها جماعة من العلماء مثل ابن قتيبة الدينوري(ت276 /890م) الذي كان يتولي قضاء مَظَالم البصرة، وبعد ثورة الزَّنْج خرج منها، ورجع إِلَى بغداد، وكان العلماء يفرّون من البصرة ناقلين معهم ما أمكنهم من العلوم والمعارف، وضاعت الكثير من الكتب بسبب هذه الفتنة، مثل الإمام ابن أبي عاصم(ت287هـ/900م) الذي ذهبت كتبه، بسبب هذه الفتنة، فلم يجد إلّا إملاء الحديث من حفظه.

ومن الأسباب التي أطالت حركة الزنج الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعيشها الخلافة لدرجة أن المعتمد بالله احتاج إلى الأموال لتمويل حربه على صاحب الزنج، ممّا جعله يقترض لأجل ذلك، فدعى القضاة والشهود بمدينة السلام للشهادة عليه في الدَيْن الذي كان اقترضه عند الإضاقة بالإنفاق على صاحب الزنج، فلمّا مثلوا بين يديه قيل لهم: "إنّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يأمركم أن تشهدوا عليه، بما في هذا الكتاب".

ولقد فشل القائد التركي موسى بن بغا في القضاء على الثورة فاستنجد الخليفة بشقيقه الأمير الموفق[1] الذي كان محنكاً في الشؤون العسكرية وخرج لقتالهم سنة 267هـ/881م فحاصر مدينة الزنج التي بنوها وأسموها: "المختارة" فنجح في اقتحامها ثم استمر في قتالهم وتتبع آثارهم حتى قضى على الآلاف منهم .

بعد القضاء على هذه الثورة حاول العباسيون إعادة إحياء المناطق التي تعرضّت للدمار جرَّاء حملات الزنج المتكرّرة ودعوا سكانها للعودة إليها، ومثال ذلك، أنّ العالم أبو دَاوُد السِجستاني(275هـ/889م) جاءه الأمير أبو أَحْمَد الموفَّق، فدخل عليه، ثمّ أقبل عليه أبو دَاوُد، فقال: "ما جاء بالأمير فِي مثلِ هذا الوقت؟، فكان من جملة ما طلب منه الأمير أنْ قال له: "أريدك أن تنتقل إلى البصرة، فتتّخذها وطنًا ليرحل إليك طلبة العلم فتعمر بك فإنّها قد خربت، وانقطع عنهَا النّاس، لِما جرى عليها من محنة الزَّنْج، فمكث بالبصرة إلى أن توفيّ بها سنة 275هـ".

---

[1] طلحة الموفق بالله ابن جعفر المتوكل ابن المعتصم (278هـ/891م) أمير من رجال السياسة والإدارة والحزم، لم يل الخلافة اسما، ولكنه تولاها فعلا، ابتدأت مسيرته بتولي أخيه المعتمد على الله الخلافة سنة 256هـ وآلت إليه ولاية العهد، ولما ظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة، برز دور الموفق، وصدّ عنه غارات الطامعين بالملك، ثم حجر على المعتمد فكان يتمنى الشئ اليسير فلا يحصل عليه، وكان الموفق شجاعا عادلا، عالما بالأدب والأنساب والقضاء، له مواقف محمودة في الحروب وغيرها. الزركلي ، الأعلام، ج3، ص229 .

ب- حركة القرامطة(278-398هـ/892-1007م):

القرامطة نسبة إلى قِرْمِط (293هـ/906م) رأس "القرامطة "، رجل من الباطنية، اختُلف في اسمه وأصله، فقيل: " حمدان " أو " الفرج بن عثمان " أو الفرج بن يحيى " أصله من خوزستان، وكان أول ظهور له في سواد الكوفة سنة 258هـ/872م فكان يظهر الزهد والتقشف واستمال إليه بعض الناس، فأراهم كتابا قيل: أوله " بسم الله الرحمن الرحيم، كما يحتوي الكتاب على كثير من كلمات الكفر والتحليل والتحريم، وكثر أتباعه والسالكون سبيله، واندمج أتباعه في طوائف الباطنية من الإسماعيلية والنصيرية وغيرهما وفي سنة (293هـ/906م) قتله المكتفي بالله.

وحركة القرامطة من الحركات التي استنزفت جهود الخلافة العبّاسيّة، وعانت معها الويلات، وكان أوّل ظهور لهذه الحركة بإقليم العراق في سواد الكوفة سنة(278هـ/892م)، وقيل أن مذهبهم تم الإعلان عليه في البحرين، وهي من الحركات الباطنيّة، وأتباعها من الزنادقة الذين اتّبعوا طريقة الملحدين، وجحدوا الشرائع، فهي فرقة داخلة في فِرق الكفر الصريح[2]، وأنّها فرقة لم تتمسّك بشيء من أحكام الإسلام، وهناك من عَدَّهُم من جملة فِرق الغلاة الذين يزعمون الدعوة لآل البيت، ويرى عبد القاهر البغدادي أنّ القرامطة من الفرق الباطنيّة المجوسيّة التي كانت تسعى لاستدراك مُلكهم، فلمّا عجزوا عن قهر المسلمين اعتمدوا أسلوب التمويه، من خلال تأويل أركان الشريعة، على وجه يؤدّي إلى رفعها، فانتدبوا إلى ذلك حمدان بن قرمط زعيم القرامطة، وغيره من دعاة الباطنيّة' كان علمهم أبيض، وهو شعار القرامطة.

في سنة(294هـ/907م) اعترض القرامطة طريق الحجاج، وأوقعوا بهم في منطقة تسمّى "الهبير"، وهو موضع عارض فيه أبو سعيد الجنابي القرمطي[3] الحاج، فراح ضحيّته جماعة من العلماء منهم، إبراهيم بن جعفر الأشعري الأصبهاني (ت294هـ/907م)، وإمام أهل الحديث عبد الله بن محمّد البلخي(ت294هـ/907م) صاحب كتاب

---

[2] القرامطة تعلّقوا بمذاهب إلحادية مثل: زرادشت، ومزدك، والثنوية، والمجوس، حيث أنّ منتسبي تلك الطوائف، لما أعجزتهم غلبة المسلمين، وكثرتهم لم يجدوا سبيلًا للظهور، والتمكين إلّا عن طريق إنشاء دعوة في الدين الإسلامي، والانتماء إلى فرقة من المسلمين، فانتسبوا إلى بعض طوائف المسلمين، وإنّما قصدهم الجحد المطلق؛ لذلك كانت لهم آراء ومذاهب أخذوا بعضها من المجوس، وأخذوا بعضها من الفلاسفة، وأمّا ألقابهم، فإنّهم يسمّون بالإسماعيليّة، والباطنيّة، والقرامطة، والخرّميّة، والبابكيّة"، وأنّهم تحيّلوا على المسلمين بطرق شتّى، فكانوا يدخلون على الشيعة، بما يوافقهم وعلى السنّة، بما يوافقهم، ويظهرون لكلّ فرقة أنّهم منهم. أنظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص ص 288، 289 ؛ الذهبي،تاريخ الإسلام، ج20، ص 234.

[3] كان أوّل ظهوره سنة(286هـ/899م)، بالبحرين؛ جنوب إقليم العراق، على الخليج الفارسي، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة، فقتل من حوله من القرى، ثمّ توجّه نحو البصرة، وظلّ شرّه في تزايد، ثمّ قتل سنة(301هـ/914م)، على يد أحد خدمه، ثمّ خلفه ابنه أبو طاهر، واستمرّ على ما كان عليه أبوه من الفساد في الأرض، فقام في سنة(316هـ/928م)، باستباحة مكّة، في موسم الحجّ، واقتلع الحجر الأسود، فلم يردّوه إلّا سنة(339هـ/951م). أنظر، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص71؛ ج11، ص 119-204-371؛ ابن مسكويه، تجارب الأمّم وتعاقب الهمّم، ج5، ص 21 ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج21، ص 27.

"التاريخ"، وكتاب "العلّل"، والمبارك القمّي، وأحمد بن نصر العقيلي، وأحمد بن علي بن الحسين الهمذاني، ومحمّد بن عيسى بن محمّد؛ المعروف ب"البياضي"(ت294هـ/907م) الذي قتله القرامطة، لما كان منصرفًا من الحجّ، ومحمّد بن إسحاق المعروف ب"ابن راهويه"(ت294هـ/907م) الذي قتلته القرامطة، لما كان راجعًا من الحجّ، وعلي بن محمّد المطرز(ت294هـ/907م).

وفي سنة(317هـ/929م) هاجم سليمان القرمطي الحجّاج يوم التروية، فقتلوا الكثير من الحجاج بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وسبب ذلك أنه راسل الخليفة المقتدر بأن يضم له البصرة سنة 311هـ/923م لكن المقتدر لم يجبه، فأغار القرمطي على الكوفة سنة 312هـ/924من ودعا إلى المهدين ثم في سنوات ثلاث عشرة، وأربعة عشرة، وخمسة عشرة وثلاثمائة لم يكن للناس موسم للحجّ، بسبب تغلّب القرامطة على البلاد، إلى أن هاجموا الحجاج في سنة(317هـ/929م) ثمّ تعطّل الحجّ من العراق منذ سنة(317هـ/929م) إلى غاية سنة (327 هـ/939م) حيث سمح القرامطة بمرور قافلة الحجّاج مقابل مكْسٍ يأخذونه.

بعد أن دخل القرامطة إلى مكّة، اقتلعوا الحجر الأسود فقام الخليفة المقتدر بالله بإرسال أحد العلماء إلى القرمطي من أجل أن يكلّمه في الحجر الأسود، فجرت بينهما مناظرات حول استحلالهم لدماء الحجيج والحجر الأسود، وكان من عجائب ما أُخبر به في لقائه مع القرامطة تعظيمهم، وتنزيههم للحجر الأسود، والتبرّك به، وهذا عجيب منهم بعد أن استحلّوا من قَبل سرقته، واقتلاعه من البيت الحرام، وظل الحجر عندهم إلى أن أعيد في عهد الخليفة المطيع لله ابن المقتدرفي سنة (339هـ/951م).

وقد انتشرت دعوة القرامطة بشكل رهيب وفي سنة(313هـ/926م) أصدر جماعة من الفقهاء حكمًا بهدم مسجد "براثا"، معتبريه مسجد ضرارٍ ، وذكروا في تقاريرهم أنّه إنْ لم يُهْدَم هذا المسجد سيكون مأوى الدعاة والقرامطة، فلمّا وصلت فتواهم إلى الخليفة المقتدر بالله بادر بهدمه، وقد تبيّن أنّ ذلك المسجد كان معقلًا لتحرّكات مشبوهة، بعد أن وجدوا فيه جماعة يراسلون القرامطة، ويشتمون الصحابة، ويعلنون البراءة، ممّن يَأْتَمّ بالخليفة المقتدر بالله، كما وجدوا معهم خواتيم من طينٍ أبيض مكتوب عليها بعض شعارات القرامطة منها، الدعوة إلى المهدي، مثل شعار:"محمد بن إسماعيل الإمام المهدي وليّ الله"، فأُخذوا، وحُبسوا، وهُدّم المسجد، وأمر بتصيّيره مقبرة دفن فيها عدّة من الموتى، وأُحرق باقيه .

وفي الوقت الذي دخل القرامطة إلى الكوفة تفرّقت البلدان عن الخلافة، وصارت البلدان بين خارجيّ قد تغلّب عليها أو عامل لا يحمل مالًا، وصاروا مثل ملوك الطّوائف، ولم يبقَ بيد الرّاضي بالله غير بغداد والسّواد، وعجز المقتدر بالله عن مواجهتهم، فلم يكن من سبيل إلّا المهادنة، لأن القرامطة كانوا يقبلون الأموال مقابل المهادنه ففي

سنة(303هـ/916م) قام الوزير علي بن عيسى بمهادنتهم، إلا أنهم بعد سنوات قليلة من ذلك دخلوا البصرة سنة(307هـ/920م)، كما أنهم في سنة(373هـ/984م) توجهوا إلى البصرة، لمِا حدث من طمعهم، بعد وفاة عضد الدولة(ت372هـ/983م)، فصولحوا على مال أعطوْه، وانصرفوا.

ولأن مؤسّسة الخلافة كانت تعاني صعوبات ماديّة في تجهيز الجيش، وقف الخليفة العبّاسي عاجزًا أمام اعتداءات القرامطة المتكرّرة على قوافل الحجّاج والمدن، ففي سنة(313هـ/926م) بلغت مؤسّسة الخلافة حدَّ الإفلاس، بعد أن استنزفتها حروب القرامطة، فلم يجد رجال السلطة الأموال التي ينفقونها على هذه الفتنة لدرجة أنْ طلبوا المال من الناس، ممّا أثار حالة من التذمّر والسخط العام أمام العجز المالي للخليفة الذي لم يجد ما يدعم به تلك الحروب.

وفي سنة(315هـ/928م) دخل الوزير علي بن عيسى على الخليفة، وخاطبه خطابًا حادًا، حضَّهُ فيه على محاربة القرامطة، فقال له:"إنّما جمع الخلفاء الأموال ليقمعوا بها الأعداء، وأنّه ليس في الخزائن شيء، ولم يتمّ على الإسلام شيء أعظم من خطر هذا الكافر، فاتّق الله يا أمير المؤمنين، وخاطِب السيّدة في مالٍ تنفقه في الجيش، وإلّا فمالَك ولأصحابك إلّا أقاصي خراسان"، فاضطر المقتدر بالله إلى إخراج خمسمائة ألف دينار، وتجهيز الجيش.

كما بادر الناس بالمساعدة، فكان الإمام البربهاري يعرض مساعدته على الخليفة ويقول:"يا قوم إن كان — الخليفة– يحتاج إلى معونة مئة ألف دينار، ومئة ألف دينار، ومئة ألف دينار –خمس مرّات– عاونتُه"، ثمّ قال ابن بطّة مُعَلِّقًا:"لو أرادها؛ لَحَصَّلها من الناس"، لأنه عندما وُلِّيَ الخليفة الراضي بالله وجد الخزانة فارغة، فقال: "لو كان لي مال ... لما رضيتُ والله، إلّا أنْ أخرُج بنفسي إلى البحرين"، لكن هذا الخليفة في نفس الوقت كان يقوم بالتضيّيق على الحنابلة الذين عرضوا عليه المساعدة، ممّا عطَّل مساعدتهم، ولم يستفد من تلك الفرصة.